اللعب وتماثيل الصبيان

كان للعرب تماثيل خاصة بصبيانهم يسمونها بالجوارى والبنات ، كما فى قول امرئ القيس :

عهدتنى ناشئاً ذا عزّة رَجِلَ الجمّة ذا بطن أَقَبْ
أتبع الولدان أرخى مِئزرى ابن عشر ذا قُرَيْط من ذهب
وهى إذ ذاك عليها مئزر ولها بيت جوارٍ من لُعَب (٣٠٠)

وفى « القاموس » : « البنات : التماثيل الصغار يلعب بها » ، وجاء فى « ربيع الأبرار » للزمخشرى فى حديث عائشه رضى الله عنها أنها قالت : « قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك وفى سهوتى ستر ، فهبت ريح ، فكشفت ناحية الستر عن بنات لى فقال : ما هذا ؟ قلت : بناتى . ورأى بينهن فرساً له جناحان ، فقال : ما هذا أرى وسطهن ؟ قلت : فرس . قال : وما هذا الذى عليه ؟ قلت : جناحان : قال فرس له جناحان ؟ ! قلت : أما سمعت أن لسليمان خيلا لها أجنحة ؟ فضحك حتى بدت نواجذه » .

وفى باب أحكام الحسبة من « الأحكام السلطانية » للماوردى ، ما يدل على أن لعب الأطفال كانت لها سوق خاصة تباع فيها ، ونص عبارته : « وأما اللّعب فليس يقصد بها المعاصى ، وإنما يقصد بها إلف البنات لتربية الأولاد ، وفيها وجه من وجوه التدبير تقارنه معصية بتصوير ذوات الأرواح ، ومشابهة الأصنام . فللتمكين منها وجه ، وللمنع منها وجه ، وبحسب ما تقتضيه شواهد الأحوال يكون إنكاره وإقراره : دخل النبى عليه السلام على عائشة رضى الله عنها ، وهى تلعب بالبنات ، فأقرها ، ولم ينكر عليها . وحكى أن أبا سعيد الإصْطَخْرِىّ من أصحاب الشافعى تقلد حسبة بغداد فى أيام المقتدر فأزال سوق الدازى* ،

(*) فى « اللسان » : « الدازى نبت ، وقيل هو شىء له عنقود مستطيل وحبه على شكل حبّ الشعير ، يوضع منه مقدار رطل فى الفرق ، فتعبق رائحته ويجود إسكاره » . وراجع « القاموس » وشرحه ، وراجع فيهما أيضا الذاذى بمعجمتين .

ومنع منها ، وقال : لا يصلح إلا للنبيذ المحرم ، وأقر سوق اللعب ولم يمنع منها ، وقال : قد كانت — عائشة رضى الله عنها — تلعب بالبنات بمشهد من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلا ينكره عليها . وليس ما ذكره من اللعب بالبعيد من الاجتهاد ، وأما سوق الدازى ، فالأغلب من حاله أنه لا يستعمل إلا فى النبيذ ، وقد يجوز أن يستعمل نادراً فى الدواء ، وهو بعيد ؛ فبيعه عند من يرى إباحة النبيذ جائز لا يكره ، وعند من يرى تحريمه جائز لجواز استعماله فى غيره ، ومكروه اعتباراً بالأغلب من حاله ، وليس منع أبى سعيد منه لتحريم بيعه عنده ، وإنما منع من المظاهرة بإفراد سوقه والمجاهرة ببيعه » إلى آخر ما ذكره . وكان ابن العماد لا يجيز اتخاذ هذه اللعب ، وينكر على أبى سعيد رأيه فيها ، وقد أشار إلى ذلك فى منظومته فى آداب الأكل[٣٠١] استطراداً بقوله :

قال الحليمى : وامنع طفلة لُعَبا ... وهو الصحيح فقم بالمنع واكتفل
أبو سعيد له التجويز قد نسبوا ... بعلّة قد وهت عن رتبة العلل

ومن تماثيل اللهو واللعب الكُرَّج* بضم الكاف وفتح الراء المشددة معرّب كُرَّه بالفارسية ، وهو تمثال مُهْر من خشب يُلعب به . قال جرير :

لبست سلاحى والفرزدق لُعْبة ... عليها وشاحاً كُرَّج وجلاجله[٣٠٢]

وقال :

أمسى الفرزدق فى جلاجل كرّج ... بعد الأخيطل ضرّة لجرير[٣٠٣]

وفى « الروض الأُنُف » فى ذكر مخنثى المدينة . « وربما لعب بعضهم بالكرّج . وفى مراسيل أبى داود أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه رأى لاعباً يلعب بالكرّج ، فقال : لولا أنى رأيت هذا يلعب به على عهد النبى صلى الله عليه وسلم ، لنفيته من المدينة »[٣٠٤] .

وذكر ابن خلدون فى فصل صناعة الغناء من « مقدمته » أن الكرّج جعل أيام بنى العباس من آلات الرقص ، قال : « وأمعنوا فى اللهو واللعب ، واتخذت آلات الرقص فى الملبس ، والقضبان والأشعار التى يترنم بها عليه ، وجعل صنفاً وحده ، واتخذت آلات أخرى

(*) ورد فى نسخة « شفاء الغليل » للخفاجى المطبوعة بالوهبية بالقاهرة سنة ١٢٨٢ بلفظ الكرّخ بالخاء المعجمة ، وهو خطأ ، ولم يزد فى تفسيره على قوله : إنه اسم لعبة معرب .

للرقص تسمى بالكرّج ، وهى تماثيل خيل مسرجة من الخشب معلقة بأطراف أقبية تلبسها النسوان ويحاكين بها امتطاء الخيل ، فيكررن ويفررن ، ويتثاقفن ، وأمثال ذلك من اللعب المعدّة للولائم والأعراس وأيام الأعياد ومجالس الفراغ واللهو » .

وذكر ابن سعيد فى « المغرب » أن الفضل بن جعفر المعروف بابن الفرات ، وزير الراضى بالله العباسى ، لما وصل إلى مصر بعد أن ملكها محمد بن طُغُجّ الإخشيد كان مما عملوه فى الاحتفال بمقدمه تمثال فرس من خشب ينحدر ويصعد ، ولعله كان من هذا النوع المسمى بالكرّج أو شبيهاً به ، ونص ما قال : « ثم دخل الوزير الفضل بن جعفر إلى مصر وقد ملكها الإخشيد ، فتلقاه الإخشيد وخلع عليه عند باب المدينة خلعاً سلطانية ، وزينت لهما المدينة ، ونصب لهما على جوسق ابن الخلاطى فرس من خشب ينحدر ويصعد ، وابن الخلاطى راكب عليه ، وأكثر الناس ينظر إليه »[٣٠٥] .

وذكر التنوخى فى « نشوار المحاضرة » أن أهل بغداد كانت لهم لعبة على قدر الصبيان يسمونها الدوبارکة ، وهى كلمة أعجمية ، فكانوا يحلون هذه اللعبة فى سطوحهم ليالى النيروز المعتضدى ، ويلعبون بها ، ويخرجونها فى زى حسن من فاخر الثياب ، وحلى يحلونها بها كما يفعل بالعرائس ، وتخفق بين يديها الطبول والزمور ، وتشعل النيران ، فقالت عائدة بنت محمد الجهنية ، وكانت كاتبة فاضلة ، تهجو أبا جعفر محمد بن القاسم الكرخى لما ولى الوزارة وتعيبه بقصر قامته :

شاورنى الكرخى لما بدا الـ ـنيروز والسن له ضاحكه
فقال ما نهدى لسلطاننا من خير ما الكف له مالكه
قلت له كل الهدايا سوى مشورتى ضائعة هالكه
أهْد له نفسك حتى إذا أشعل ناراً كنت دوبارکه[٣٠٦]

وذكروا أنهم كانوا يتخذون الأحجار فى بعض رقع الشطرنج مصورة بأشكال ما سميت به ، وقد رأيت صورة حجر منها فى كتاب فى الشطرنج بالفرنسية على شكل فيل يحف به الجند فرساناً ومشاة ، وعلى ظهره محمل قد استوى فيه الملك ، ونقش عليه بحروف كوفية « من عمل يوسف الباهلى » ، وذكر المؤلف أنه من قطع الشطرنج الذى أهداه هارون الرشيد لشارلمان[٣٠٧] .

ويلتحق بهذا النوع تماثيل خيال الظل ، وهى لعبة معروفة تتخذ شخوصها من جلود وتحرك بعصى من وراء ثوب أبيض مشدود ، فيظهر خيالها فيه ، ويقال : إن أصلها من لعب الهند القديمة (٣٠٨) ، وأقدم ما وصل إليه علمنا عن اشتغال العرب بها ، أنها كانت من ملاهى القصر بمصر مدة الفاطميين ، فقد ذكروا أن السلطان الملك الناصر صلاح الدين أخرج من قصورهم من يعانى خيال الظل ليريه للقاضى الفاضل ، فقام عند الشروع فيه ، فقال له الملك : إن كان حراماً فما نحضره . وكان حديث عهد بخدمته قبل أن يلى السلطنة فما أراد أن يكدر عليه ، فقعد إلى آخره ، فلما انقضى قال له الملك : كيف رأيت ذلك ؟ قال : رأيت موعظة عظيمة ؛ رأيت دولاً تمضى ، ودولاً تأتى . ولما طُوى الإزار طَىّ السجل للكتب ، إذا المحرك واحد (٣٠٩) ، فأخرج ببلاغته هذا الجد من هذا الهزل ، ولبعض الشعراء فى هذا المعنى :

رأيت خيال الظل أكبر عبرة ... لمن هو فى علم الحقيقة راقى
شخوص وأشباح تمر وتنقضى ... وتفنى جميعاً والمحرك باقى

وكان لسلاطين مصر ولع به بعد ذلك ، حتى حمله السلطان شعبان معه لما حج سنة ٧٧٨ مع ما حمله من الملاهى ، فأنكر الناس ذلك عليه ، كما فى « درر الفرائد المنظمة » للجزيرى (٣١٠) . وذكر السخاوى فى « التبر المسبوك » أن الظاهر جقمق أمر سنة ٨٥٥ بإبطال اللعب به ، وإحراق شخوصه ، وكتب على اللاعبين العهود بأن لا يعودوا إليه ، والظاهر أنه فعل ذلك لما كان يقع فى مجتمعاته من المفاسد (٣١١) . وذكر ابن إياس فى حوادث سنة ٩٢٣ ما نصه : « وفيه أشيع أن السلطان سليم* شاه لما كان بالمقياس أحضر فى بعض الليالى خيال الظل ، فلما جلس للفرجة † قيل إن المخايل صنع صفة باب زويلة وصفة السلطان طومان باى لما شنق عليه ، وقطع به الحبل مرتين ، فانشرح ابن عثمان لذلك ، وأنعم على المخايل فى تلك الليلة بثمانين ديناراً ، وخلع عليه قفطاناً مُخْمَلاً †† مذهباً ، وقال له : إذا سافرنا إلى اسطنبول فامض معنا حتى يتفرج ابنى على ذلك » (٣١٢) .

(*) لم ينونه إما تساهلا أو لعده مع ما بعده من المركبات المزجية ، والكلام فى إعراب مثله ليس هذا موضع تفصيله .

(†) الفرجة يراد بها الرؤية والمشاهدة ، واستعمالها فى هذا المعنى عامى .

(††) القفطان محرف عن لفظه التركى قفتان ، وهو فى الفارسية خفتان بالخاء المعجمة . والمخمل ذو الوبر المعروف الآن بالقطيفة